أما كيف يحدث النطق ـ نطق الجلود ـ فجوابه: ﴿الذي أنطق كل شيء﴾ أي بالإرادة الإلهية الواقعة بقوله للشيء كن فيكون.

ولا يمكن استبدال القول بالنطق هنا، لأن المعني بالآية، أو الحاصل الدلالي لها، هو الإعراب عن معجزة نطق الجلود، ونطق كل شيء بإرادة الله، وليس في لفظ القول التخصيص الذي يدل على هذا الإعجاز، إذ قد يكون القول رمزًا أو تلونًا أو غير ذلك مما يدل بلا نطق ولا صوت.

وقول النملة كذلك قولٌ على الحقيقة، قال تعالى ﴿حتى إذا أتوْا على وادي النمل قالت نملةٌ يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكًا من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك...﴾[1] فالنملة قالت هذا حقا، ودل عليه قوله ﴿فتبسَّم﴾ فقد قالت شيئًا، بطريقة ما، وفهم هذا القول سليمان وكان له رد فعل «تبسَّم»، ولو كان قولها مجازًا معبرًا عن معنى حقيقي مخالف لظاهر اللفظ، لما تبسَّم، لأن المعنى غير القول، وتبسمه كان رد فعل مبنيا على قولها الذي أدرك سليمان معناه بما علمه الله مما شاء أن يعلمه لنبيه..

وكون القول يعني توصيل الرسالة بطريقة ما، لا ينفي أن المراد، أو الحاصل الدلالي في آية السماء والأرض هو حدوث الطاعة بعد صدور الأمر من الله، وأنه في آية جهنَّم عظم سعتها لتستوعب الكافرين والظالمين جميعًا فيخاف بهذا الترهيب من يخاف..

وهو كذلك لا يخرج الأمر، عندما يكون الفعل مسندًا إلى غير العاقل، من أن يكون القول كلامًا، لكنه يبقى الكلام أحد الاحتمالات بدلاً من أن يكون هو المعنى الوحيد للقول، فيلزمنا بذلك أن نؤوِّل الآيات الأخرى التي لا يمكن أن يكون القول فيها كلامًا، سواءً بسبب دلالة السياق اللغوي للفظ أو السياق العام للنص.

فالقول إذن لفظ عام يشمل معاني هي الطرق المختلفة لأدائه ومنها الكلام، فإذا كان القائل بشرًا جاز أن يكون المعنى الكلام وإن كان غير ذلك بقيت الأنواع الأخرى التي يشملها النطاق الدلالي الواسع لهذا اللفظ.

---

(١) النمل: ١٨، ١٩.